

المثاقفة والترجمة بحث في القيم المعرفية وآليات التواصل

د. رابح طبجون
المدرسة العليا للأساتذة
/قسنطينة/

الملخص

تلعب الترجمة دورا كبيرا و متميزا في تحقيق عملية المثاقفة في المستويين العلمي و الإنساني في جانبيه الثقافي و الأدبي ، و تكمن أهمية الترجمة الأدبية في تفعيل هجرة النصوص الإبداعية من ثقافة إلى أخرى. بدأت حملة التعرف العربي على ملامح من النتاج الأدبي الغربي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوصول وفود من العلماء و المستشرقين الغربيين إلى الأراضي العربية من خلال حملة نابليون على مصر، و انتهاج كثيرين منهم أساليب ومفاهيم مختلفة من تغريب للحياة العربية، وقد عرف العرب يومها أشياء عن المسرح، وعن الشعر والنثر الفرنسيين¹. و قد وجد بعض الأدباء العرب- مع مطلع القرن العشرين- ميلاً إلى انتشار مجتمعاتهم من برائن الجهل ومستنقعات التخلف طوال عقود من الزمن، و للأخذ ببعض ما ألموا به من نماذج الآداب الغربية بهدف السعي الدؤوب نحو الالتحاق بحركة العلم وتحقيق التحسن المطلوب في الأصعدة الفكرية و المعرفية و الاجتماعية حتى يقفوا على عتبة التغيير الحقيقي فيكونوا بذلك مؤثرين و فاعلين في حركة الحياة متأثرين بكثير من مبادئ الآداب الأوروبية المعاصرة آنذاك.

ومع النصف الثاني من القرن العشرين كانت قد بدأت ملامح قوية للتثاقف الأدبي مع الغرب تفرض نفسها على ساحة الأدب العربي، فظهرت مؤلفات أدبية كثيرة و متنوعة من الأدب الغربي وقام كثيرون بنقل أعمال أدبية غربية لكبار الأدباء الغربيين إلى اللغة العربية، كما اشتدت الدعوات إلى الانفتاح على الاتجاهات الغربية في النتاج الأدبي العربي المعاصر مثل (الدعوة إلى تجاوز بحور الخليل، وإلى نبذ الحرف العربي وتعويضه بالحرف الأجنبي لكتابة اللغة العربية، الخ) و لعل من أهم مجالات هذه الفاعلية للتثاقف مع الغرب ما صدر عن مجلة (شعر)² في ستينيات القرن العشرين حين دعت إلى إعادة النظر من الداخل في معطيات التراث الثقافي العربي، و ربط مستقبل الثقافة العربية بتفاعلها الحميم الخلاق المبدع مع الحضارة الإنسانية منذ أرسطو إلى يومنا هذا.

1- التثاقف مع الغرب من الاحتكاك إلى التقاطع:

تحول التثاقف الأدبي مع الغرب في النصف الثاني من القرن العشرين، بسبب اختلاف المفاهيم، و اختلاف النظرة إلى التراث و المعاصرة، والتعصب في تمسك كل فريق بما يراه صحيحاً إلى أبعاد متباينة قسمت أصحابها بين توجهين أساسيين: سمي الأول (التيار المنفتح) و وسم الآخر بـ (التيار المحافظ). وفي الوقت الذي رأى فيه أصحاب التيار المنفتح أنهم أكثر تقديراً لحيوية وجود الأمة، و أقدر على النهوض بها، و أن الخلاص الحضاري للعرب لن يكون إلا بالانفتاح على تجارب الغرب و المعاصرة و القفز فوق المتوارث و الطبيعي و المألوف القديم.

و وجد أصحاب التيار المحافظ أن مسعى التنوير هو تسهيل للسيطرة الأجنبية و تغيير لمعالم هوية الأمة. ولم يقف الأمر عند ذلك بل تبادل الفريقان الاتهامات مثل: التخلف وعدم النضج

الحضاري والثقافي. و"إن كانت المثاقفة تعني الإنصات المتبادل بين الثقافات والاعتراف باختلافها"⁽³⁾.

2- من زخم المتغيرات إلى متاريس الثوابت :

دخلت البشرية إلى عالم ذابت فيه المسافات الزمانية والمكانية ، وزالت الحواجز الجغرافية ، التي كانت تفصل بين تواصل الشعوب والمجتمعات من قبل. و نتج عن هذا الوضع الجديد إعادة النظر في القراءات الفيزيائية القائمة على اعتبار أثر المكان و الزمان في علاقات الثقافات والحضارات.و قد "تبلورت عناصر هذا الوضع بعد سقوط حائط برلين وانهيار الشيوعية، و اندلاع حرب الخليج، و هو خطاب جاء معلنا عن (حرب الثقافات) و(صدام الحضارات) جاعلا من الأفراد و الجماعات سجناء هوياتهم الثقافية"⁴.

لقد أسس تطور تقنية الاتصال اليوم وسائط و معابر جديدة تجعل عملية الانتقال عملية حضور متزامن لا يرتفع بعامل الزمان والمكان. إنه تغيير جذري في إيقاع المثاقفة الذي ساد من قبل. ففي هذا العالم المندمج أو المعلوم⁵ يتقلص الزمن و تتلاشى المسافات و تنتقل رؤوس الأموال، و السلع، و المعلومات، و المفاهيم، و الأفكار، والأخبار، و الأذواق بسرعة مذهلة، و بحرية تامة، غير معترفة بحدود وطنية ، أو برفض إيديولوجي. و الواقع أن العولمة و الثورة العلمية والتكنولوجية هما

وجهان لعملة واحدة"⁶ . فقد ولى الزمان الذي كان فيه انتقال الخبر مرهوناً بالتضاريس، مثلا استغرق انتقال خبر موت نابليون بونابرت Napoléon Bonaparte (1769-1821) من جزيرة سانت

هيلانة إلى باريس ستة شهور، وفي القرن الثاني عشر للميلاد استغرق انتقال خبر موت ابن تومرت (1080-1128)، مؤسس دولة الموحدين، حوالي ثلاث سنوات لينتشر الخبر بين الناس. نظرا لسرعة انتقال المعلومات و انعدام الرقابة على مكوناتها الدقيقة فإن أنماط جديدة من التفكير تبلورت استجابة لهذه المؤثرات الخارجية العامة لفضاءات ثقافية متباينة، بل ثمة حمولات وقيم معرفية و ثقافية تتناقل عبر وسائط الاتصال الأمر الذي ينذر بحدوث تحولات جذرية في الهويات الثقافية و أنماط التفكير والعيش.

لكن إلى جانب اختصار المسافة المادية الذي أنهى أثر الفاعل الجغرافي في اتصال الثقافات والحضارات، إلا أن المسافات النفسية ما زالت قائمة وهي التي تصنعها الثقافة. فالمجتمعات تختلف فيما بينها في اللغة والمعتقد و الذوق و عادات و أنماط العيش؛ و من ثم فهي عند تلاقيها لابد أن تتجادل و تتخالف، وتتبادل مشاعر التعالي والاستهجان.

فما هي دلالة هذا التحول و ما أثره المرتقب على علاقة المثاقفة؟ فالمثاقفة علاقة تفاعلية بين ثقافتين أو أكثر، و هي علاقة تتميز بتبادل الخبرات و المعارف، أو انتقالها من حقل مجتمعي إلى آخر. و في مقابل ذلك يمكن الحديث عن الاستلاب الذي يُقصد به في الاستعمال المتداول تطور علاقة المثاقفة إلى انسلاخ من الذاتية الثقافية و اعتناق لثقافة الآخر.

وتنشأ المثاقفة (acculturation) جرّاء توليد العلاقة التي تتميز بتبادل الخبرات والمعارف، و للدلالة على التداخل الحاصل بين مختلف الحضارات على مستوى التأثير والتأثر. فقد استعملت الكلمة كمرادف لمصطلح "التبادل الثقافي" أو العبور الثقافي (transculturation)، و خلاصته

أن المثاقفة هي مجموع الظواهر و التغيرات الناتجة عن " اتصال مستديم و مباشر بين مجموعات من الأفراد من انتماءات ثقافية مختلفة"⁷.
و لا تهدف هذه النزعة إلى "تسلط أمة على أمة أو سيادة ثقافية على أخرى ، و إنما تهدف إلى احترام الاختلاف بوصفه سبيلا للاتفاق والاعتراف بالتباين بوصفه دليلا على العافية"⁸.

و المثاقفة لا تعني الغزو الثقافي الذي يتضمن الرغبة في إلغاء الآخر رغم هيمنت هذه الرؤية في مقاربة ظاهرة المثاقفة على كثير من الأبحاث والدراسات المعاصرة. "و قد أشار الناقد الأمريكي فريدريك جيمسون إلى أنَّ الرأسمالية بوصفها أول ثقافة عالمية حقيقية لم تتخل يوما عن مسعاها إلى امتصاص كل غريب عنها، و ما يزال هذا المفهوم متسيداً لدلالات العولمة"⁹.

و تُعد المثاقفة أيضا وسيلة فعالة لتنمية روح الثقة و التسامح بين الأفراد و الجماعات، و تساعد على خلق تواصل و تفاهم أفضل بين الشعوب، وعلى تفعيل القواسم المشتركة بينها، مما يؤدي إلى إزالة بؤر التوتر والعداوة التي يغذيها التفوق و الانعزال. وكل ذلك يمكن أن يؤدي إلى التقارب بين الحضارات.

إن علاقة المثاقفة على مستوى تفاعل المجتمعات ، تتمظهر في الصيغ الثلاثة التالية:
✓ **الانغلاق:** ونقصد به تفوق الأنا الثقافي الجمعي، و رفض التعامل مع الثقافة الأجنبية و هو "وعي إذعاني لا يرى من التغيير سوى البدع المفضية إلى الضلالة بالمعنى الديني أو المدني، مقترنا بالكيفية التي تحمي بها الذات المهزومة نفسها"¹⁰. و قد كان النموذج الألباني ، زمن الشيوعية، بارزا في هذا الإطار خلال القرن العشرين، حيث ضُرب به المثل في إحكام الستار الحديدي بينه و بين النموذج المجتمعي الغربي الرأسمالي. و هذه الصيغة تكاد تكون لامثاقفة، أي رفض لكل أشكال التواصل. و هو ما يمكن أن نلاحظه في بعض النماذج المجتمعية التقليدية كشكل من أشكال الرغبة في عدم المثاقفة (مثلا نموذج المجتمع الطالباري الأفغاني).
فالمجتمع المغلق تسكنه فوبيا الآخر، لذا تجده مشغولا بتفكيك و قطع أدوات التواصل مع العالم الخارجي، و سد القنوات التي يمكن أن تمر عبرها قيم و معتقدات الآخر، طائنا بذلك أنه يقوي الذاتية الثقافية ويحفظها.

✓ **التفاعل:** وهو الأخذ والاستفادة من ثقافة الغير دون التفريط في الهوية الثقافية "غير أن الشكوى التي تتردد تجاه عملية العولمة، لاسيما في الجانب الثقافي منها، ناتجة عن قلق طبيعي على الخصائص المميزة لتلك الثقافات التي تخشى أن تذوب في الثقافة المسيطرة. و من هنا تنشأ عملية مقاومة تلقائية حيناً، و مخطط لها حيناً آخر، تسعى فيها الثقافة التي تتعولم إلى استنهاض تراثها و مميزات حاضرها دفاعا عن كيانه و شخصيتها الخاصة"¹¹.

✓ **الاستلاب:** و هو التخلي عن الهوية الثقافية و تَمَثُّلُ وتقليد النموذج الثقافي للآخر. لكن هذا التخلي لا يكون مطلقا، حيث نجد في الغالب استمرارية لكثير من العوائد و القيم والمعتقدات. لكن على مستوى الفعل والبناء الاجتماعي يلاحظ حضور نظم و قيم الآخر.
إنها ثلاث صيغ تتميز بها علاقة المثاقفة، و بالنظر إلى واقع تطور تقنية الاتصال حاليا يمكن القول بأن شكل المثاقفة اليوم قد تبدل فلم يعد الأمر مرهونا بعلاقة تماس جسدي بل بفعل ثورة الاتصال

هذه، ثمة فضاء قد تمدد، فأصبحنا نتحدث عن انتقال و ثقافة في مجال افتراضي لا يتقوم بالمعايير الفيزيائية للمكان والمسافة.

و من ثم وجب إعادة النظر في إيقاع الثقافة و شمولها. "فإذا كان الحاجز التضاريسي كاف لمنع ثقافتين متجاورتين من التواصل، فإن زمن "نهاية الجغرافيا" يدفع إلى تخطي علامات التضاريس و تسريع انتقال الأذواق و الأفكار ، الأمر الذي يؤدي إلى تسارع إيقاع الثقافة بأكملها¹².

و إذا كانت الوسائط الناقلة للثقافة في القديم تكاد تنحصر في الانتقال الذي يتم عن طريق الهجرة أو المصاهرة، فإن تطور تقنية الاتصال اليوم أسس لمعابر جديدة تجعل عملية الانتقال عملية حضور متزامن لا يخضع لشروط وحدود الزمان والمكان.

3- وهم صدام الثقافات

من الإشكالات التي تناولها الفكر المعاصر قضايا ما إذا كانت العولمة قد ولدت ثقافتها التي هي ثقافة الحضارة الصناعية الجديدة ، أم أننا نعيش في عصر تصادم الثقافات و صراع الحضارات المتباينة والمنفصلة. إن الحوار حول كونية وتعددية الحضارة قد اتخذ مسار ثلاث رئيسية:

أولها: المقاربة التاريخية التي تؤيد فكرة وحدة الحضارة كنتاج لامتزاج وتداخل الثقافات المتغايرة عبر العصور، "حيث تذهب إلى تحليل مختلف أشكال الثقافة و مؤسساتها وأنماط إنتاجها وتلقيها. و إن كان من خيط متين يجمع هذه التوجهات فلعله في كونها تسير في منحى انتقادي يسأل كثيرا مسلمة الثقافة الغربية على مستوى الذي تنعقد فيه الصلة بين أشكال الثقافة الاتصالية (من لغة وأدب وفكر و ما إليها) من جهة و الحياة الاقتصادية والسياسية من جهة أخرى"¹³، و يذهب إلى

اعتماد هذه المقاربة جمع مختلف من المفكرين من ذوي الخلفيات المتباينة، يلتقون في التصور التاريخاني الغائي لمسار البشرية.

ثانيها: بعض اتجاهات الدراسات المستقبلية التي تنطلق في ضبط السياقات الثقافية من أرضية وآليات التطور التقني، باعتبار أن كل تقدم نوعي في العلوم والتقنيات يفضي إلى إحداث قطاعات حاسمة في الأنساق المجتمعية والثقافية والأطر المعيارية والسلوكية للبشر. من هذا المنظور، يرى بعض الباحثين أن التاريخ الإنساني عرف قطاعات ثلاثا أساسية هي التي كيفت الحقب الحضارية الطويلة المتميزة، و هي عصور الزراعة و الثورة الصناعية و الثورة الاتصالية الراهنة.

و لذا فالحضارة المعاصرة المهيمنة ليست حضارة غربية و لو كان مركزها في الغرب، و إنما هي النتاج الطبيعي لتغير جوهري في تقنيات التصرف في الطبيعة، و لا خيار في قبولها أو رفضها، ما دامت تستمد مشروعيتها ونجاحتها من النشاط المادي الطبيعي المباشر و ليس من خيارات عقدية أو إيديولوجية مسبقة.

ثالثها: بعض الاتجاهات الفلسفية والأنثروبولوجية التي تقسم الثقافات وتصنفها باعتبار منطلقاتها العقدية وخياراتها المجتمعية و الأيديولوجية، غالبا بإعطاء الأولوية للمعطى الديني الذي يظل المقوم الأساس للثقافات، وهو المعيار الأسهل في ضبط الخارطة الحضارية للعالم "حيث

حاول المفكر الأمريكي صمويل هنتنغتون Samuel P.Huntington في كتابه (صراع الحضارات) قراءة مستقبل العالم المعاصر وتأكيده تحول مسار الصراع إيديولوجيا واقتصاديا... مع تباين الحضارات¹⁴.

و غني عن البيان، أن هذه المقاربات الثلاث هي الخلفية النظرية الأعمق للحوار الدائر حاليا حول وحدة أو صدام الحضارات، و إن كان مصطلح الحضارة نادرا ما يحظى بالتدقيق المنهجي المطلوب.

فالذين يقولون بكونية الحضارة الواحدة، من أتباع هيجلHegel (1770-1831)، أو من المبشرين بعصر (العولمة) من أصحاب الدراسات المستقبلية ، قليلا ما يهتمون بشرح المضامين النظرية والمعارف لهذه الحضارة الكونية الواحدة. فكيف يمكن تحديدها بخلفيتها الدينية التاريخية البعيدة، و هي القائمة

على القطيعة الحاسمة و المطردة بالمرجعية الدينية التي لم تعد أساسية التأثير في المسارات السياسية والاجتماعية في الغرب.

و مهما يكن فإن العولمة قد وفرت أدوات تواصل ثقافي غير مسبقة، شديدة النجاعة وقوية التأثير، إلا أنها لم تولد مضمونا ثقافيا ذاتيا. بيد أن أصحاب نظرية صدام الثقافات وصراع الحضارات كثيرا ما يحذرون كما عبر المؤرخ جيفري باركلو Geoffrey Barraclough عام 1955 عن "قلقه من التبعات الكونية لهذا (البناء الملق) للحضارة الغربية و قيمها و أفكارها الإقصائية"¹⁵.

فحركات الأحياء ليست تعبيرات عن جوهر ثقافي جامد، بل هي تجليات متنوعة (بإيجابياتها وسلبياتها) لمسار تنافق عميق، قد يتخذ سمة فكرية رصينة و واعية، و قد يسلك الطرق العدمية التدميرية اليائسة، لكنه يبقى حتميا وضروريا،" و من هذا المنطلق فإن هذه النزعة في ملامحها الإيجابية تبدأ من الإيمان بعلاقات متكافئة بين كل أمم الكوكب الأرضي الذي تحول إلى قرية كونية بالفعل، وذلك إيمان لا يفارق معنى الاعتماد المتبادل بين الأمم و الشعوب من حيث هو معنى يناقض المعنى القديم للتبعية وينقضه"¹⁶.

و كذلك شأن الحضارة الغربية الحديثة، فإنها حضارة البشرية الواحدة، إلا أنها من منطلق حيويتها و قدرتها على النقد الذاتي و التجدد، مخترقة بالتنوع و الاختلاف، حتى و لو كان البعض من الغربيين يريد اختزالها في خلفيات دينية وقومية جامدة.

و عموما فإن الثقافة ترعى التواصل والتفاعل بين المتناقصين، بهدف الاغتناء المتبادل، وتوفير شروط الثقة والرغبة لتحقيق التفاعل ولضمان التقدم والتطور المتبادلين واكتساب المعارف والعلوم والتجارب والخبرات الإنسانية.

الهوامش والإحالات :

- 1- صالحة نصر: إشارات من الثقافة العربي مع التّغريب، جريدة الثورة ، دمشق ، 25/04/2007. أنظر المقالة على الرابط: <http://thawra.alwehda.gov.sy>
- 2- مجلة شعر اللبنانية: صدر العدد الأول في بيروت سنة 1957، وقد دعى "يوسف الخال" مؤسس مجلة شعر إلى "شعر طليعي تجريبي يقوم على الثورة على الأشكال و المضامين، و الذهاب بالشعر إلى ما وراء اللغة لأن القافية ماتت على صخب الحياة وضجيجها " .
- 3- عبد الرحمن التمار: سؤال الترجمة ، من نقطة التحويل إلى دائرة الثقافة، مجلة فكر و نقد، المغرب، عدد 86، سنة 2007، ص 81.

- 4- سليمان إبراهيم العسكري: "إعلام العولمة"، ضمن كتاب العربي (الإسلام والغرب)، عدد49، الكويت، سنة 2002، ص48.
- 5- يجب التفريق هنا بين العولمة و العالمية. فالعالمية تؤمن بمبدأ الاعتراف بحق الشعوب في التعايش في ضوء التنوع و الاختلاف و التعدد و الخصوصية الثقافية. أما العولمة فهي على النقيض من ذلك، حيث تدافع على أطروحة "القطب الواحد" و "الفكر الواحد".
- 6- عبد الباقي الهرماسي: "العولمة والهوية الوطنية"، ضمن كتاب العربي (الإسلام والغرب)، عدد49، الكويت، سنة 2002، ص87.
- 7- صالحة نصر: إشارات من الثقافة العربي مع الغرب ، أنظر المقالة على الرابط: <http://thawra.alwehda.gov.sy>
- 8- جابر عصفور: نحو ثقافة مغايرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، 2008 ، ص170.
- 9- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي ، الرباط، المغرب، ط03 ، 2002، ص193.
- 10- جابر عصفور: نحو ثقافة مغايرة، ص33.
- 11- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص197.
- 12- دوني إيلي ألفا: موسوعة أعلام الفلسفة العرب و الأجانب، تقديم شارل حلو، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، سنة 1992، ص65.
- 13- ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص82.
- 14- عبد الواحد علواني: "الجغرافية المستقبلية للصراع البشري"، ضمن كتاب العربي (الإسلام والغرب)، عدد49 ، الكويت، سنة 2002، ص25.
- 15- باسم لطفي السيد: القوة والمعرفة، اختزال الحضارات في تركيبة الحضارة الغربية، مجلة الكرمل، فلسطين، عدد75، سنة 1975، ص62.
- 16- جابر عصفور: نحو ثقافة مغايرة، ص171.